الفصل الأول

مقدمة تاريخية

obeikandl.com

من المتفق عليه أن الانثروبولوجيا الاجتماعية ، كعلم منهجى ، لم تظهر الا فى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا[١] • ومن الرواد الاوائل الذين قاموا بتدريس الانثروبولوجيا فى الجامعات نذكر سير ادواردب • تايلور Sir Edward B. Tylor فى بريطانيا[٢] وفرانز بواس Franz Boas فى الولايات المتحدة[٣] • وقد شاع استخدام اسم « الانثروبولوجيا الاجتماعية "Social Anthropology" » فى انجلترا خلال الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، ولم يلبث أن أعترف به بعد ذلك فى الجامعات البريطانية • ويعتبر سير جيمس فريزر Sir James Frazer هو أول شخص يحصل على لقب « أستاذ الانثروبولوجيا الاجتماعية » Professor of Social Anthropology. فقد منحته جامعة ليفربول درجة الاستاذية الشرفية سنة ١٩٠٨[٤] •

---

(١) R.L. Beals & H. Hoijer, An Introduction to Anthropology. (New York, fifth printing, 1956). p. 604.

(٢) R.R.. Marett. "Tylor", in Encyclopaedia of the Social Sciences (1948, volume : XV). pp. 134 _135.

(٣) A. Kardiner & E. Preble, They Studied Man (A Mentor Book, 1963), p. 120.

(٤) A.R. Radcliffe-Brown, Method in Social Anthropology, (Chicago, 1958), p. 133.

الا أنه يهمنا أن نشير الى أن البحث فى شئون المجتمعات الانسانيـــة قديم قدم الانسان نفسه ، وقبل ظهور الانثروبولوجيا الاجتماعية كعلم •

فالمؤرخ اليونانى العظيم « هيرودوتس Herodotus » (٤٨٠ — ٤٢٥ ق•م•) كان رحالة محبا للاسفار • وقد قدم لنا وصفا للحياةالاجتماعية فى مصر ، كما قدم لنا أيضا وصفا لحياة الشعوب « البربرية » • وجدير بالذكـــر أن البعـــض من البـــاحثين يطلق على هـــيرودوتس لقب « أبو الانثروبولوجيا [٥] » Father of anthropology.

كذلك نجد فى كتابات الكثير من الرحالة Ttavellers وصفا لعادات الشعوب فى بقاع مختلفة من العالم • ومن الامثلة على ذلك نذكر « ماركو بولو[١] Marco Polo » (١٢٥٤ — ١٣٢٣) ، وابن بطـــوطـــــة[٧] (١٣٠٤ — ١٣٧٧) • [٧]

وفى خلال النصف الثانى من القرن الرابع عشر ، ظهـــر « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العـــرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من

---

(٥) C. Kluckhohn, Mirror for Man, (Eleventh Fawcett Premier printing, 1967), p. 12.

(٦) Alfred C. Haddon, History of Anthropology, (London 1934), p. 102.

(٧) ولد محمد ابن بطوطة فى مدينة طنجة سنة ١٣٠٤ واقام بها حتى بلغ الثانية والعشرين من عمره . وقد قام ابن بطوطة بثلاث رحـــلات فى الفترة من سنة ١٣٢٥ حتى سنة ١٣٥٤ . ومن البـــلاد التى زارها نذكر : مـــراكش ، الجزائر ، تونس ، طرابلس ، مصر ، فلسطين ، لبنان ، سوريا ، الحجـــاز ، العراق ، بلاد العجم ، بلاد الاناضول ، اليمن ، عمان ، البحرين ، الهنـــد ، افغانستان ، الصين ، بلاد الاندلس ، السودان . وقـــد ســـجل ابن بطوطة مذكراته عـــن البلاد التى زارها فى كتابه « تحفة النظار ، فى غرائب الامصار ، وعجائب الاسفار » .

ذوى السلطان الاكبر » . وقد قدم عبد الرحمن ابن خلدون (١٣٣٢ — ١٤٠٦) لهذا المؤلف ببحث عام فى شئون الاجتماع الانسانى ، وهو البحث الذى اشتهر باسم « مقدمة ابن خلدون ». وترجع أهمية هذه المقدمة الى أن ابن خلدون قد دعا فيها الى انشاء علم لدراسة الظواهر الاجتماعية أطلق عليه اسم « علم العمران البشرى » .

ولا شك أن المبشرين Missionaries كان لهم أيضا دورهم الهام بالنسبة لجمع المعلومات عن كثير من المجتمعات ومن أمثلة الدراسات التى قدمها لنا المبشرون نذكر دراسة جوزيف ف . لافيتو Joseph F. Lafitau (١٦٧٠ — ١٧٤٠) عن قبائل الهيرون والايروكوا ودراسة ف دى شارلفوا FX de Charlevoix (١٦٨٢ — ١٧٦١) عن الهنود الحمر فى كندا[٨] .

وفى القرن التاسع عشر دعا « أوجيست كونت Auguste Conte" (١٧٩٨ — ١٨٥٧) الى قيام علم يهدف الى دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة علمية. وقد أطلق عليه كونت اسم « علم الاجتماع Sociology» [٩].

وفى القرن التاسع عشر ، أيضا ، ظهرت كتابات عديدة عن مناطق مختلفة فى العالم قدمها لنا الرحالة والمبشرون ورجال الادارة والتجار .

ويلاحظ أن الكثير من هذه الدراسات يتسم بالسطحية ، بينما نجد أن

---

(٨) Alfred C. Haddon, History of Anthropology, p. 102.

ومن الدراسات الهامة التى قدمها لنا المبشرون أيضا نذكر دراسة كودر نجتون « الميلانيزيون » (١٨٩١) ودراسة روسكو عن « البـاجاندا » (١٩١١) . انظر :

R.H. Codrington, The Melanesians, (New Haven, 1957); J. Roscoe, The Baganda : their Customs and Beliefs., 1911.

(٩) Marvin Harris, The Rise of Anthropological Theory (London, 1968), pp. 59-60.

البعض الآخر منها يتسم بالدقة والامانة • ومن أحسن الدراسات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر نذكر دراسة ادوارد لين Edward W. Lane « المصريون المحدثون The Modern Egyptians » (سنة ١٨٣٦) ودراسة كودرنجتون Codrington «الميلانيزيون The Melanesians» (سنة ١٨٩١) • ويهمنا أن نشير الى هاتين الدراستين بشىء من الايجاز:

أولا ــ دراسة ادوارد ويليام لين « المصريون المحدثون » :

عاش ادوارد ويليام لين فى انجلترا فى القرن التاسع عشر (١٨٠١ــ ١٨٧٦) • وقد اشتغل فى مستهل حياته نقاشا بمدينة لندن ، الا أنه لم يلبث أن هجر تلك المهنة بعد ذلك واتجه للدراسات الشرقية • وفى سنة ١٨٢٥ سافر لين الى مصر لدراسة اللغة العربية بالقاهرة • الا أنه ما لبث أن أبدى اهتماما شديدا بعادات الاهالى • فاتجه لدراستها وتسجيل ملاحظات عنها طوال اقامته بالبلاد • وفى سنة ١٨٣٦ نشر كتابه :

An Account of The Manners And Customs of The Modern Egyptians.

ويهدف هذا الكتاب الى تقديم صورة عن عادات المصريين خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر • ويشتمل الكتاب على مقدمة وثمانية وعشرين فصلا تبحث فى جوانب مختلفة فى حياة السكان مثل الدين والقوانين ، الحكومة ، الحياة العائلية ، اللغة ، الخرافات ، السحر ، الصناعة ، الحمامات ، الموسيقى ، الموت وشعائر الجنازات •

وبالنسبة لوسائل جمع البيانات ، فان لين يذكر أنه قد قرأ كثيرا مما كتب عن منطقة البحث ، كما أنه بدأ فى تعلم اللغة العربية قبل حضوره الى مصر • وفى خلال اقامته بالبلاد ، كان يرتدى الزى الوطنى ويتحدث لغة الاهالى أنفسهم • كما أنه كان يحرص على أن يراعى عاداتهم

وتقاليدهم • فقد امتنع عن الطعام والشراب الذى يحرمه الدين الاسلامى مثل لحم الخنزير والخمور ، كما امتنع أيضا عن بعض العادات التى كان الاهالى يعتبرونها غير مقبولة مثل استخدام الشوكة والسكين عند تناول الطعام • وفى الحقيقة لقد كانت الملاحظة من أهم المصادر التى اعتمد عليها المؤلف فى جمع البيانات ، فكان يختلط بالاهالى ويلاحظ عاداتهم • كما أنه قد اعتمد كذلك على المخبرين من الاهالى • فكان يدعو الكثير منهم الى مسكنه للتحدث معهم فى المسائل التى شاهدها بنفسه ويرغب فى الاستفسار عنها ، أو للتحدث معهم عن بعض النواحى التى يتعذر عليه هو شخصيا أن يقوم بملاحظتها •

والكتاب يحتوى على مجموعة كبيرة من الصور التى رسمها لين بنفسه ، وقد بلغ عددها ١٣١ صورة • أنظر :

E.W. Lane, The Modern Egyptians (London, 1944).

ثانيا ــ دراسة كودرنجتون « الميلانيزيون » :

كان ر• هـ• كودرنجتون R. H. Codrington أحد أعضاء البعثة التبشيرية فى ميلانيزيا • وهو يذكر لنا فى مقدمة كتابه أنه قد جمع ملاحظاته عن عادات الاهالى فى الفترة من سنة ١٨٦٣ حتى سنة ١٨٧٧ • وبالنسبة لوسائل جمع البيانات فقد أقام بمنطقة البحث واعتمد على الملاحظة وأقوال المخبرين من الاهالى :

"It has been my endeavour in the following pages to bring together the results of such observations as many years acquaintance with Melanesian people has enabled me to make".

(R.H. Codrington, The Melanesians, Preface to the First Edition, p. V.).

وقد ظهرت الطبعة الاولى من الكتاب سنة ١٨٩١ • ويحتوى الكتاب على دراسة لجوانب مختلفة من الحياة الاجتماعية • ومن الموضوعات التى تناولها كودرنجتون بالدراسة نذكر ، القرابة ، الزعماء ، الملكية والميراث ، الجمعيات السرية ، الدين ، الاماكن المقدسة ، القرابين ، الصلوات ، السحر ، المولد والطفولة والزواج ، الموت والدفن وما بعد الموت ، الرقص، الموسيقى ، الالعاب • أنظر :

R.H. Godrington., The Melanesians, (HRAF Press, New Haven, 1957).

ولم تظهر الدراسات المنهجية للنظم الاجتماعية الا خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر (١٠) • فقد ظهر كتاب سير هنرى مين Sir Henry Maine (١٨٢٢ — ١٨٨٨) « القانون القديم «Ancient Law سنة ١٨٦١ وكتاب باخوفن Bachofen (١٨١٥—١٨٨٧) « حق الام Das Mutterrect سنة ١٨٨٦ وكتاب فوستيل دى كولانج Fustel De Coulanges (١٨٣٠—١٨٨٩) « المدينة العتيقة «La Cite Antique سنة ١٨٦٤ ، وكتاب ا• ب• تايلور (١٨٣٢—١٩١٧) « أبحاث فى التاريخ القديم للجنس البشرى "Researches Into the Early History of Mankind سنة ١٨٦٥ وكتابه الآخر « الثقافة البدائية Primitive Culture سنة ١٨٧١ وكتاب ل• هـ• مورجان Lewis H. Morgan (١٨١٨—١٨٨١) « نسق روابط الدم والمصاهرة فى العائلة الانسانية «Systems of Consanguinity and Affinity of the human Family سنة ١٨٧١ وكتابه الآخر «المجتمع القديم "Ancient Society سنة ١٨٧٧ • ثم كتاب سير ج• فريزر

---

(١٠) E.E. Evans-Pritchard, Social Anthropology and Other Essays, (The Free Press, New York, 1966), p. 27.

Sir James Frazer (١٨٥٤ — ١٩٤١) « الغصن الذهبى The Golden Bough » سنة ١٨٩٠ .

هذا ويهمنا أن نشير هنا الى أن العلماء فى القــرن التاسع عشر قــد ركزوا جهودهم على دراسة أصــل النظم الاجتماعيــة . وتعتبر كتابات مورجان وتايلور ومين وباخوفن وماكلنان أمثــلة تبين لنا مــدى سيطرة النظرية التطورية على الدراسات الانثروبولوجية فى ذلك الحين[١١] .

---

(١١) جدير بالذكر أن العلماء التطوريين evolutionists فى القــرن التاسع عشر كانوا يبدون اهتماما كبيرا بدراسة الاختراعات inventions . كما انهم كانوا يميلون أيضا الى التقليل من اهمية الانتشار diffusion كعامل فى بناء الثقافات Cultures .

(Beals & Hoijer, An Introduction to Anthropology p. 614.

وعلى العكس من ذلك ، نجد فريقا آخر من العلماء يبدون اهتماما كبــيرا بدراسة الانتشار الثقافى ويعتبر ريفرز W.H.R. Rivers واليوت سميث G. Elliot Smith وبرى W.J. Perry من اشهر ممثلى المدرسة الانتشارية بريطانيا British diffusionists . ويرى سميث ويرى أن الحضارة الحقة انما وجدت فقط فى مصر القديمة ، وأن هذه الحضارة المصرية القديمــة قــد إنتشرت الى الاجزاء المختلفة من العالم :

"... in rapid succession they (the inhabitants of the Nile Valley) invented pottery, basketry, matting, houses, and flax; learned to domesticate animals; built towns; and began to bury their dead in cemetries and to develop notions of deity. As the Egyptians progressed in civilization, they set about journeying by land and sea over great distances in search of precious metals and other materials . And in so doing, they rapidly spread through diffusion and colonization, varieties of the original archaic civilization, which had been founded on the banks of the Nile".

(M. Harris. The Rise of Anthropological Theory, p.p. 380-381).

كما يهمنا أن نشير كذلك الى أن علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية فى القرن التاسع عشر لم يقوموا هم أنفسهم بملاحظة الوقائع التى يبنون عليها نظرياتهم ، وانما كانوا يعتمدون على كتابات المبشرين والرحالة والتجار وحكام المستعمرات لتزويدهم بالمعلومات اللازمة . وقد قامت « الجمعية البريطانية لتقدم العلوم "The British Association For The Advancement of Science بنشر كتاب Notes and Queries "On Anthropology" سنة ١٨٧٤ . ولقد كان الغرض من صدور ذلك الكتاب هو مساعدة الافراد كالرحالة والمبشرين للقيام بملاحظة المجتمعات البدائية بطريقة سليمة ، وجمع المعلومات التى تلزم للدراسات الانثروبولوجية التى يقوم بها العلماء فى بريطانيا(١٢) .

ولقد كان نتيجة لعدم اهتمام علماء القرن التاسع عشر بالنزول الى الميدان لملاحظة الظواهر الاجتماعية بأنفسهم ، أننا نجد أن الدراسات الحقلية التى قام بها هؤلاء العلماء كانت قليلة . فهناك دراسة مورجان عن الايروكوا (سنة ١٨٥١) ودراسة بواس عن الاسكيمو (٨٣ - ١٨٨٤) ودراسة بعثة جامعة كمبردج الى مضايق توريس The Cambridge Expedition

---

= كما يرى سميث واتباعه ايضا أن الاستعارة borrowing تكاد تكون هى الوسيلة الوحيدة التى تؤدى الى حدوث التغير الثقافى . وجدير بالذكر أن اليوت سميث (١٨٧١ — ١٩٣٧) قد حضر الى مصر واشتغل بجامعة القاهرة أستاذا لعلم التشريح فترة من الزمن . وفى خلال اقامته فى مصر ، قام بدراسة عدد من المومياءات ، كما أنه قام كذلك بدراسة المغزى المقصود من عملية التحنيط . كذلك أهتم سميث أيضا بدراسة العادات الخاصة بالجنازات فى مصر القديمة ، انظر :

(١٢) A. Haddon, History of Anthropology, p. 121.

F.C. Bartlett and associates (Ed.) The Study of Society (London, 1944), p. 278.

To Torres Straits (١٨٩٨—١٨٩٩) • وكانت هذه البعثة برئاسة هادون Haddon وعضوية ريفرز W.H.R. Rivers ، ماكدوجال W. McDougall ، سلجمان C.G. Seligman ، ميرز C.S. Myers ، سيدنى راى Sidney Ray ، أ• ويلكنز A. Wilkins • وقد قضت البعثة فى منطقة البحث عاما واحدا (١٨٩٨ — ١٨٩٩) • ومن النقد الذى يوجه الى تلك البعثة نذكر قصر المدة التى قضاها أفراد البعثة فى منطقة البحث ، وكذلك جهلهم بلغة الاهالى • ولا شك أن ذلك كان له أثره بالنسبة لتعمقهم فى فهم الحياة الاجتماعية هناك • ورغما من ذلك ، فان هذه البعثة — وكما يقول ايفانز بريتشارد — تعتبر نقطة تحول فى تاريخ الانثروبولوجيا الاجتماعية فى بريطانيا • فلقد ترتب عليها أن الانثروبولوجيا — كعلم — قد اصبحت تحتاج الى التخصص والتفرغ الكامل • وعلاوة على ما تقدم ، فقد أصبحت الخبرة الميدانية تعتبر جزءا ضروريا بالنسبة لتكوين طلاب هذا العلم • يقول ايفانز بريتشارد :

"This expedition marked a turning point in the history of social anthropology in Great Britain. From this time two important and interconnected developments began to take place : anthropology became more and more a whole-time professional study, and some field experience came to be regarded as an essential part of the training of its students. This early professional field Word has many weaknesses. However well the men who carried it out might have been trained in systematic research in one or other of the natural sciences, the short time they spent among the peoples they studied, their ignorance of their languages, and the casualness and superficiality of their contacts with the natives did not permit. deep investigation. It is indeed a measure of the advance of anthropology that these early studies appear today to he quite inadequate".

(E.E. Evans-Pritchard, Social Anthropology and Other Essays p. 73)

ومنذ بداية القرن العشرين ، نجد أن كثيرا من العلماء قد نزلوا الى الميدان ، وقاموا بدراسات عديدة عن المجتمعات البدائية . ومن الامثلة على ذلك نذكر دراسة ريفرز W.H.R. Rivers عن التودا[١٣] (سنة ١٩٠٦) ودراسة سلجمان Seligman عن قبائل جنوب السودان (سنة ١٩٣٢)، ودراسة راد كليف بروان Radcliffe-Brown عن جزر الاندمان ودراسة مالينوسكى[١٤] Malinowski عن جزر التروبرياند (سنة ١٩٢٢) ودراسة ايفانز بريتشارد Evans-Pritchard عن الازاندى (سنة ١٩٣٧) . والنوير[١٥] (سنة ١٩٤٠) فى جنوب السودان ، ودراسة ريموند فيرث Raymond Firth عن جزيرة تيكوبيا (سنة ١٩٣٦) ، ودراسة وورنر Warner عن المورنجن فى استراليا (سنة ١٩٣٧) ، ودراسة بريستيانى Peristiany عن الكبسجيس Kipsigis فى كينيا[١٦] (سنة ١٩٣٩) .

---

(١٣) يعيش التوديون فى قرى صغيرة على تلال نيلجيرى Nilgiri hills فى جنوب الهند ، وقد اجرى ريفرز (١٨٦٤ — ١٩٢٢) بحثه هناك خلال عامى ١٩٠١ و ١٩٠٢ . وبالنسبة للتقرير الخاص بذلك البحث فقد نشر فى عام ١٩٠٦. ومن الموضوعات التى تناولها ريفرز بالدراسة نذكر واد البنات female infanticide ونظام تعدد الازواج Polyandry وطريقة نسب الاطفال عند الاهالى ، وجدير بالذكر ان ريفرز كان يجهل لغة الاهالى ، ومن ثم فقد اعتمد على المترجمين خلال اقامته بمنطقة البحث .

(١٤) أول كتاب نشره مالينوسكى عن جزر التروبرياند هو :
Argonauts of the Westery Pacific (1922)

(١٥) أول كتاب نشره ايفانز بريتشارد عن النوير هو :

The Nuer; A. Description of The Modes of Livelihood and Political Institutions of A Nilotic People (Oxford. 1940).

(١٦) J.G. Peristiany, The Social Institutions of the Kipsigis, (London. 1939).

وفى خلال القرن العشرين أيضا قام بعض العلماء بدراسة المجتمعات القروية والحضرية • ومن الامثلة على ذلك دراسة كونراد أرنسبرج Conrad Arensberg عن الفلاحين فى أيرلنده[١٧] (سنة ١٩٣٧) ودراسة أوسكار لويس Oscar Lewis لقرية تيبوزتلان[١٨] Tepoztlan فى المكسيك (سنة ١٩٦٠) ودراسة روبرت لند Robert Lynd وهيلين لند Helen Lynd « ميدلتاون[١٩] (Middletown فى الولايات المتحدة (سنة ١٩٢٩) ودراسة و• ل• وورنر W.L. Warner وزملاؤه عن « يانكى سيتى[٢٠] Yankee City (سنة ١٩٤١) ، وكذلك دراسته هو وزملاؤه عن « جونزفيل[٢١] Jonesville » (سنة ١٩٤٩) فى الولايات المتحدة •

---

(١٧) Conrad M. Arensberg, The Irish Countryman. An Anthropological Study, (Gloucester Mass., Peter Smith, 1959).

(١٨) Oscar Lewis, Tepoztlan, Village in Mexico. (New York, 1980).

(١٩) Robert S. Lynd, H.M. Lynd, Middletown : A Study in American Culture, (Harcourt, Brace and Company, New York, 1929).

(٢٠) أول كتاب ظهر فى سلسلة « يانكى سيتى Yankes City Series » هو كتاب :

W. Lloyd Warner and Paul S. Lunt, The Social Life of A Modern Community, (New Haven Yale University Press).

وقد ظهرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب سنة ١٩٤١ .

(٢١) W.L. Warner and associates, Democracy In Jonesville, (Harper& Brothers New York, 1949).

obeikandl.com